المبحث الرابع

حسن التعليل
فى ميزان النقد الأدبى

اهتم النقاد بحسن التعليل فى إطار احتفالهم بالصورة واهتمامهم بها ، وكانت لهم فى ذلك نظرات دلت على مدى ما حظى به هذا الفن لديهم من نظر فى طريقته وتذوق لأمثلته وإبداء الآراء حول بعضها .

وذلك أنهم إذا كانوا يرون أن من أسباب نجاح الخيال قربه من مجال الشعور وأن يكون ممثلا للعاطفة والوجدان مع بعده عن البراهين لاعتماد الشعر على التصوير الحسى وأن الاحتجاج إنما هو من لغة العقل البعيدة عن الإيحاء المثير للعواطف[١] .

فإن حسن التعليل ما هو إلا عبارة عن مجىء الصورة فى أسلوب برهانى منطقى، أو بمعنى آخر : الاحتجاج لفكرة ما عن طريق دليل يؤخذ من مضمون صورة بيانية[٢] .

وقد رأى الإمام عبد القاهر الجرجانى أن سلوك الخيال فى الاحتجاج والتعليل بهذه الطريقة أمر مقبول ما تركت المضايقة ، وأخذ بالمسامحة ، ولم ينقب عن السرائر ، وهو النمط العدل والنمرقة الوسطى ، وهو شىء تراه أشبه كثيرا بالآداب والحكم البريئة من الكذب[٣] .

واشترط النقاد للعلة الشعرية - حُسْنُ التعليل - أن تكون ملائمة للمقام وإلا خرجت عن المقصود منها ، فمثلا فى قول ابن الرومى معللا بكاء الطفل ساعة ولادته :

---

(١) ينظر : الخيال الشعرى عند أبى الطيب المتنبى ص١٩٣ د . طه مصطفى أبو كريشة .

(٢) ينظر : السابق ص ١٩٧ .

(٣) ينظر . أسرار البلاغة ص ٢٤ ط دار المعرفة بيروت .

لما تؤذن الدنيـــا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولـــد
وإلا فما يبكيه منها وإنهـــــا لأرحب مما كان فيه وأرغـــد

نجده قد علل بكاء الطفل ساعة ولادته بما تؤذن به الدنيا من صروفها والعناء الذى يلقاه فيها وتلك علة خيالية التمسها الشاعر لظاهرة البكاء لحظة ميلاد الطفل ، وهى تعبر عن نفسية الشاعر وتشاؤمه المعهود فى حياته ، إذا ربط بين آلام الحياة وصروف الدهر وبين بكاء الطفل ساعة ولادته ولا شأن للطفل بهذه المتاعب ٠٠ وإنما هى النظرة المتشائمة للحياة ٠٠٠ وعندما نقارن بين هذا القول - من ابن الرومى - وبين قول أحد شعراء الأندلس معللا بكاء الطفل عند مولده تعليلا آخر ، فيقول مهنئا بمولده:

لم يستهل بكا ولكن تنكرا أن لم تعد له الدروع لفائفا

نجد أن الشاعر - هنا - قد علل بكاء الطفل بأنه ينكر لفائفه المعتادة ويريدها دروعا وسيوفا وكأن الشاعر يتنبأ بما سيكون عليه الطفل من الشجاعة والقوة ، وهذا يناسب مقام التهنئة بالمولود ٠

ومثل ذلك النظر فى تعليل شاعرين وهما يعللان للكلف الموجود على صفحة البدر ، يقول أبو العلاء المعرى فى رثاء إبراهيم العلوى معللا كلف البدر :

وما كلفة البدر المنير قديمة ولكنها فى وجهه أثر اللطم

ويقول ابن القيسرانى معللا كلفة البدر أيضا :

وأهوى الذى أهوى له البدر ساجدا ألست ترى فى وجهه أثر الترب

فنجد اختلافا فى التعليلين عند الشاعرين ، الأول : يعلله بأثر اللطم ، والثانى: بسجود البدر لمن أحبه وهواه ، وكل واحد من التعبيرين مناسب للمقام الذى قيل فيه ، إذ الأول : فى مقام الرثاء ، والثانى : فى مقام الحب والغزل[1] .

كما اشترطوا ألا يكون مجافيا للذوق والآداب والقيم ، وإلاخرج إلى سوء تعليل وفساد ذوق واستدلوا لذلك بقول ابن هانىء الأندلسى :

ولو لم تصافح رجلها صفحة الثرى لمـــا كنـــت أدرى علة للتيمم

وذلك حيث علل الشاعر للتيمم بما يتنافى وقيم الإسلام وآدابه الرفيعة ، إذ

---

(١) ينظر : علم البديع دراسة تاريخية فنية ص ١١٨ د ٠ بسيونى عبد الفتاح فيود ط أولى سنة ١٤٠٨ هـ ١٩٨٧ م ٠

جعل العلة فيه هو مصافحة رجل فتاته للثرى الذى يكون به التيمم ، وقد علق ابن أبى الإصبع المصرى على ذلك فقال : وهذا من غلو ابن هانىء المعروف فلحى الله غلوه .. أراد ابن هانىء الإغراب فى هذا المعنى فوقع فيما عادته أن يقع فيه من الغلو ، وأحسن منه قول ابن رشيق القيروانى فى تعليل قوله عليه الصلاة والسلام : « جعلت لى الأرض مسجدا وطهورًا » وحيث قال :

سألت الأرض لم جعلت مصلى ... ولِمْ كانت لنا طهرا وطيبا
فقالت غير ناطقة لأنى ... حويت لكل إنسان حبيبا

فتخلص مما وقع فيه ابن هانىء لكونه ذكر أنه سأل الأرض عن العلة التى بسببها جعلها الله تعالى لرسوله - عليه السلام - مسجدا وطهورا وتلطف فى استخراج علة مناسبة لاحرج عليه فى ذكرها فكيف وقد ذكرها على لسانها فى جواب سؤاله[1] .

واشترط الإمام عبد القاهر للعلة الشعرية الطبع وعدم الإفراط والتعمق ، وذلك أن الإمام وإن كان يرى أن التخييل عموما يحتاج إلى مزيد من التعمق والتفكر فإنه يرى أنه ينبغى على الشاعر أن يحذر الإفراط فى هذا الجانب وذلك لأنه ربما أخل بالمعنى وألحق بقوله الشين ، وأكد على ذلك فى عرضه لأمثلة هذا اللون أو بالأحرى تلك الصورة من صور التخييل ، فيقول : « ومن الغريب فى هذا الجنس على تعمق فيه قول أبى طالب المأمونى » :

مغرم بالثناء صب بكسب المجـ ... ـد يهتز للسماح ارتياحا
لا يذوق الإغفاء إلا رجاء ... أن يرى طيف مستميح رواحا

وكأنه شرط الرواح على معنى : أن العفاة والراجين إنما يحضرونه فى صدر النهار على عادة السلاطين فإذا كان الرواح ونحوه من الأوقات التى ليست من أوقات الإذن قلّوا فهو يشتاق إليهم فينام ليأنس برؤية طيفهم ، والإفراط فى التعمق ربما أخل بالمعنى من حيث يراد تأكيده به ، ألا ترى أن هذا الكلام قد يوهم أنه يحتج له : إنه ممن لا يرغب كل واحد فى أخذ عطائه ، وأنه ليس فى طبقة من قيل فيه :

عطاؤك زين لامرىء إن أصبته ... بخير وما كل العطاء يزين

---

(١) ينظر : تحرير التحبير ص ٣١٠ ابن أبى الإصبع المصرى ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة .

وذلك فى بيته الثانى حيث يعلل إغفاء الممدوح برجاء أن يرى طيف طالب عطاءه وقت الرواح والعلة الحقيقية فى ذلك إنما هى طلب الراحة .

فالإمام يرى أن الشاعر قد أفرط فى التعمق حتى أتى بهذه العلة لتأكيد مراده ، ولكن كلام الشاعر مع ذلك يوهم من ناحية أخرى معنى غير مقصود ، والذى جره إلى ذلك إنما هو إفراطه فى التعمق[1] .

ثم يحاول الإمام بعد ذلك دفع هذا التوهم والتقليل من أهميته فيقول : ومما يدفع عنه الاعتراض ويوجب قلة الاحتفال به (أى الاعتراض) أن الشاعر يهمه أبدا إثبات أن ممدوحه جواد أو تواق إلى السؤال فرحا بهم ، وأن يبرئه من عبوس البخل وقطوب المتكلف فى البذل الذى يقاتل نفسه عن ماله حتى يقال جواد ، وممن يهوى الثراء والثناء معاد لا يتمكن فى نفسه معنى قول أبى تمام :

ولم يجتمع شرق وغرب لقاصد ولا المجد فى كف امرىء والدراهم

فهو يسرع إلى استماع المدائح ، ولا يبطىء عن صلة المادح ، نعم فإذا سلم للشاعر هذا الغرض لم يفكر فى خطرات الظنون .

وعلى الرغم من محاولته تلك فى دفع هذا الاعتراض ، إلا أنه لا يغير شيئا من أصل ما نبه عليه فيما سبق وهو أن الإفراط فى الصفة يخل بالمعنى ومن هذه الجهة يلحق الضيم كثيرا من المتعمقين وممن ليسوا من المطبوعين[2] .

كذلك رأى النقاد أنه يجب أن لا يصيب العلة المتوهمة شىء من المبالغة ، وإلا ما حظيت بالقبول الذى تحظى به الصور التى تأتى على شىء من القصد والاعتدال .

فمثلا عندما تنظر فيما وقع من المتنبى حين بالغ فى التصوير فى قوله مادحا بالجود ومقارنا بين جود الممدوح وغيث السحاب وأن جود الممدوح لا يبارى[3] :

وإذا مطرت فلا لأنك مجدب يسقى الخصيب وتمطـــر الدأماء

لم يحك نائلك الســـحاب وإنما حُمَّت به فصيبها الرحضـــاء

---

(١) ينظر : أسرار البلاغة ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ . ط دار المعرفة بيروت .

(٢) ينظر السابق ، وينظر : بحوث فى البلاغة والنقد ص ١٠٨ ، ١٠٩ د . الشحات محمد أبو ستيت ، ط الأمانة سنة ١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م القاهرة .

(٣) الدأماء : البحر ، ينظر : ديوان المتنبى ص ١٢٩ نشر المكتبة الثقافية بيروت .

نجد أن الشاعر أراد أن يجعل الممدوح مثلا فى الجود فقلب التشبيه وجعله أصلا والسحاب فرعًا ثم بالغ فتخيل أن مطر السحاب ليس محاكاة له ، لأنه عاجز عن هذه المحاكاة ، وإنما حدثت به غيرة كان من ورائها إصابته بالحمى فكان مطره عرق هذه الحمى .

وعد القاضى عبد العزيز الجرجانى مثل هذا التخييل مما لا يؤدى إلى الظفر بمعنى شريف ، وإنما هو الإفراط والإغراق والإحالة[1] .

وشبيه بالسحاب الذى أصابته الحمى هنا ، الصرع الذى أصاب خيمة سيف الدولة فأدى إلى تقويضها وهدمها ، يقول المتنبى[2] :

وكيف تقوم على راحـــة ... كأن البحار لها أنمـــل
فليت وقارك فرقتـــــه ... وحملت أرضك ما تحمـــل
رأت لون نورك فى لونهـــا ... كلون الغزالة لا يغســـل
وأن لها شرفا باذخـــا ... وأن الخيام بها تخجـــل
فلا تنكرن لها صرعـــة ... فمن فرح النفس ما يقتـــل
ولو بلغ الناس ما بُلّغتْ ... لخانتهم حولك الأرجـــل

فهو يعلل لهذا التقويض الذى أصاب الخيمة ، ومع أن الخيمة وقعت بسبب ريح شديدة إلا أن الشاعر المتنبى بحث لهذا التعويض عن علل خيالية اتخذها وسيلة إلى مدح سيف الدولة فذكر أنها تقوضت لأنها أحست بالعجز عن أن تحويه فهو جواد كأن البحار جميعا أنامل لراحته المعطاء ، ثم ذكر علة أخرى غير العجز وهى شدة فرحها بحلول سيف الدولة ، ولكن : « من فرح النفس ما يقتل » ، وثمة علة ثالثة وهى أن الخيمة لقربها الشديد منه أصابها كثير من الهيبة فارتعشت وخانتها أطنابها ولو كان الناس فى مثل مكانها « لخانتهم الأرجل » فمثل هذه التعليلات لا وجود لها إلا فى ذهن صاحبها ، وهو قد اتخذها طريقا إلى مدح سيف الدولة بالجود والوقار والشرف والهيبة[3] ، فهى وإن كانت مقبولة إلا أن فيها تلك المبالغات ، التى كان المدح سبب وقوع الشعراء فيها والتى جعلها - أيضا - محل نظر من النقاد .

(١) ينظر : الوساطة ص ١٨٠ القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى .
(٢) ينظر : ديوان المتنبى ص : ٣٠٦ نشر المكتبة الثقافية بيروت .
(٣) ينظر : الخيال الشعرى عند المتنبى ص٢٠٠ ، ٢٠١ د . طه مصطفى أبو كريشة .

ولقد كان لابن وكيع التنيسى موقف كذلك ، مع « حُسْنُ التعليل » ، إذ وقف موقفا عقليا بحتا من هذا اللون ، وذلك أثناء تأمله لشعر المتنبى ، حيث عاب بعض الأبيات التى حليت بهذا اللون الخيالى فى كنايه (المنصف) ، ومنها قول المتنبى :

ما به قتـــل أعاديه ولكن يتقى إخلاف ما ترجو الذئاب

فيقول مُتعجبا : هذا من طريق المدح « أن تمدح الرجل بقتل بنى آدم لئلا يخلف رجاء الذئاب ، وأنه كان لا يقتل أعاديه خوفا منهم ولكن يقتلهم من أجل تحقيق رجاء لذئاب ، والذئاب تريد أن تشبع ولا يشترط الشبع من لحوم الناس ، فإذا كان هَمّه فالأحسن أن يشبعها من لحم حلال ليحقق رجاءها ويصير من أهل العفو ويجتنب المآثم والكف عن الاستكثار بالمظالم[1] .

فابن وكيع نظر فى البيت بمعيار العقل ولذلك عاب على المتنبى خياله الذى صور علة غير حقيقية لإقدام الممدوح على قتل أعدائه .

ثم عاد ابن وكيع وكرر فى موضع آخر من كتابه (المنصف) هذا البيت للمتنبى وكرر ما ذكره من أن دماء بنى آدم لا يحسن سفكها من أجل الذئاب والطير ، ففى قول المتنبى :

سفك الدماء بجوده لا بأسه كرما لأن الطير بعض عياله

يقول ابن وكيع : فأخبر أن سفكه للدماء إنما كان للجود لا للبأس ، فنفى من فضيلة الأمراء ما هو أحوج إليه وأخص بصفاته ، ولو كان قائد جيش بخيلا كان أقل عيبا من أن يكون جبانا ، وقد استحسن هذا المعنى حتى كرره فقال :

ما به قتـــل أعاديه ولكـــن يتقى إخلاف ما ترجو الذئاب

فخبر أنه سفك دماء الناس خوفا من إخلاف الذئاب رجاءها ، وكذلك سفكها لأن الطير من عياله ، وما يحسن أن تسفك دماء بنى آدم بغير استحقاق لتشبع لحومهم الذئب والطير قد يسفك لهـا لمقصد دم ما هو أحسن سفك دم من دماء الآدميين وأجل ، فإن قال قائل قد قال النابغة :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهـــم عصائب طير تهتدى بعصـــــائب

جوانح قد أيقن أن قبيـــــــله إذا ما التقى الجيشـــان أول غالب

---

(١) ينظر : المنصف ص ٥٣ ابن وكيع التنيسى .

قال الأفوه ، ومنه أخذ النابغة :

وترى الطير على آثارنا رأى عين ثقة أن ستمار

وقال أبو نواس :

تتأبى الطير غدوته ثقة بالشبع من جزره

وقال مسلم :

قد عود الطير عادات وثقن بها فهن يتبـــعنه فى كل مرتحل

فقد سبقه الناس إلى ما عيب عليه .

قلنا : ليس الأمر كما ظننت ، لأن هؤلاء كلهم إنما قصدوا أن الممدوحين مظفرون ويسفكون الدماء فى كل حرب ، وقد تعود الطير ذلك منهم ، فهى تتبعهم واثقة بالعادة منهم ، ولم يخبر أحد من الشعراء أن دماء الناس يقصد بسفكها إشباع الطير ، إنما تسفك بمقصد عقلى فإذا سفكت انتفعت الطير بها فهذا الفرق بين المذهبين[1] .

فنجد أن ابن وكيع عنده قدرة فائقة على استخراج المعانى المكررة وتتبعها لدى الشعراء على مر عصور الشعر ، وإن كان المعيب عليه هو تناقضه فى أحكامه ففى الوقت الذى ينقضى فيه كلام المتنبى ويرفض خياله ، يقبل خيال غيره من الشعراء ، على الرغم من عدم وجود فارق يعتد به بين ما قبله من شعر الشعراء وما رفضه من شعر المتنبى ، والمفروض فى الناقد عند تعامله مع ذلك اللون البديعى أن لا يضع القيود العقلية ليحاسب بها الشعراء على تخيلاتهم ، ما دام كلامهم قد طابق المقاييس البلاغية التى ارتضاها أهل هذا العلم[2] .

ويمضى بنا الزمن حتى نصل إلى العصر الحديث فنجد أن هذا اللون قد حظى باهتمـــام باحث وناقد معاصر بحثه فى درسه لقضية « الإبداع والاختراع » عند الشعراء ، وذلك حيث يقرر أن من مظاهر العقم فى الأدب العربى تلك الفكرة

---

(١) ينظر المنصف ص ٥٥٤ ، ٥٥٥ . ابن وكيع التنيسى . تحقيق د . محمد رضوان الداية ، ط سوريا .

(٢) ينظر السابق ص ٥٣٠ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، وينظر : المعركة النقدية بين ابن وكيع والمتنبى ص ٣١٢ ، ٣١٣ د . الشحات محمد أبو ستيت ط الأمانة ١٩٩١ م . القاهرة .

الخاصة التى سيطرت على الشعراء المتأخرين وهى : سمى (بالاختراع والابتكار) وذلك أن الشاعر لا يطلب منه أن يجيء بالمعنى الجديد الذى لم يسبق إليه ، وليس من علامات التفوق أن يخترع ويبتكر المعانى والصور إلا عنـــد من أخطأ فهم مهمة الشاعر ، وإنما يطلب من الشاعر ما يعرف بالأصالة ، وهى لا تتم إلا إذا توفر لها عنصران :

● أولهما : عمق الإحساس .

● ثانيهما : استقلاله وتميزه فى التعبير عن هذا العمق ، وفى الحق أن الأمرين وجهان لشيء واحد[1] ، ويرى ذلك الناقد أن المسألة على ذلك ليست ابتكارا واختراعا ، وإنما هى أسلوب فى التعبير يختلف بين عصر وعصر ومذهب ومذهب ، بين فنان وفنان واختلاف المذاهب والأساليب ينبغى أن يكون وراء شعور صادق من الفنان بأن أسلوب غيره أو أسلوب السابقين عليه لا يفى بحاجة التعبير الحى الموحى التى ينشدها والتى يجدها مطابقة لحالاته النفسية ومشاعره[2] .

وينتهى من ذلك إلى أن تلك الفكرة هى التى سيطرت على الشعراء المتأخرين فى العصر الأيوبى مما كان له أكبر الأثر فى فهم الشعر من جانب ، بل كانت دليلا على سطحية الإحساس لدى هؤلاء الشعراء من جانب آخر ، وتلاعبا والتماسا للغرابة والتفرد من جانب ثالث ، وغلبة للعقل على العاطفة من جانب رابع[3] ، ويستدل لذلك بعدة أبيات لابن سناء الملك ، يرى أنه بها كان يسعى وراء ما سماه « اختراعا وابتكارا » .

من ذلك شاهد لحسن التعليل يقول فيه : أما البيت الذى فيه الخضاب وقد فهم منه أن تلك المرأة المذكورة قد خضبت كفها بخضاب أخضر اللون ، فهو يدخل فيما أسماه البلاغيون بحسن التعليل ، وهو فى اصطلاحهم : أن تفسر ظاهرة من الظواهر المحسوسة أو المدركة بسبب غير سببها الطبيعى المعروف فيلتمس لها علة أخرى بلاغية أو أدبية تقوم مقام العلة الحقيقية فقول الشاعر :

فلا تنكروا منهـــا الخضاب فإنما هى الغصن فى أطرافه الورق الخضر

معناه أنه ما دامت قامة المرأة تشبه الغصن فلا عجب أن يكون فى أطراف هذا الغصن ورق أخضر وهو هنا الكفان المخضوبان بالخضرة . . .

(١) ينظر : ابن سناء الملك « مشكلة العقم والابتكار » ص ٧٧ . ط الانجلو .

(٢) السابق ص ٧٨ . (٣) السابق ص ٧٩ .

وقد شغف ابن سناء الملك بهذا الاتجاه شغفا عظيما بحيث لا تكاد تخلو قصيدة له من عدد من « حسن التعليل »[1] .

ويرى هذا الناقد أن « حسن التعليل » بهذا المعنى البلاغى . . . كان ينبغى أن يسمى المغالطة ، أو على الأقل التعليل البلاغى بدلا من « حسن التعليل » لأنه فى أكثر الحالات لا يستحق أن يوصف بالحسن[2] .

لكن هذا القول يرد عليه ، وذلك لأن المغالطة لون آخر من ألوان البلاغة يختلف عن حسن التعليل ، وكذلك يوجد أيضا لدى العلماء ما يعرف « بالتعليل » وهو يختلف كذلك عن حسن التعليل ، ثم إن قوله « التعليل اليلاغى » يرد عليه قوله ، لأنه لا يمكن أن يكون الكلام بليغا إلا إذا كان مقبولا ، ولا يكون مقبولا إلا إذا كان مستحسنا ممن يتذوقون الأساليب ويميزون البليغ من غير البليغ ، ولأن طريقة حسن التعليل تختلف عن طريقة التعليل ، وذلك لأن طريقة حسن التعليل لا تنطبق على القرآن الكريم ، وتنطبق على الشعر والنثر الأدبى ، وأما ما جاء فى القرآن فيطلق عليه « التعليل » فهناك فرق لاعتماد « حسن التعليل » على الخيال فى العلة بخلاف التعليل فلا خيال فيه .

ثم يعود هذا الناقد مرة أخرى منكرا « حسن التعليل » تحت عنوان « الاستعارة والتعليل البلاغى » ، ويورد البيت السابق لابن سناء الملك وهو قوله :

فلا تنكروا منهـــا الخضاب فإنمـــا هو الغصن فى أطرافه الورق الخضر

ويقول فيه : ومن هنا كانت الاستعارة أقرب إلى الفهم الحقيقى للشعر ، وأبعد عن التكلف لأنها كما قلنا تعتمد على اللمحة الدالة الموحية وهى أيسر على الشاعر والقارىء لأنها عنصر من عناصر متعددة يشترك معها فى إثارة العاطفة ويدخل فى نطاقها ، أما « حسن التعليل » فإنه لما خرج فى صورة قضية منطقية كان أقرب إلى حكم العقل وأشبه بأن يثير التفكير العقلى لدى القارىء قبل الإيحاء العاطفى ، وهذا نوع من الانحراف فى معنى الشعر ، وكان لابد لكى يدخل « حسن التعليل » فى المفهوم الحقيقى للشعر أن يخفف ما استطاع من صرامة العرض المنطقى ووضوحه ، وأن تكون قضية معروضة فى جو عاطفى بحيث لا يحس قارىء الشعر فيه بتكلف وافتعال وحرص على مناقضة العقل وتكذيب الواقع ، إذ إن مهمة الشاعر وفنه

---

(١) السابق ص ٨٥ .

(٢) السابق ص ٨٦ .

الحقيقى وبلوغه ما ينشده من تأثير فى نفس القارىء سيظل مرتكزا على (الإقناع) بمعنى من المعانى ، وإن عمل الشاعر فى الشعر الغنائى والقصصى والتمثيلى لا يمكن بحال من الأحوال أن يخلو من محاولة هذا الإقناع ، لأنه عن طريقه يدخل القارىء والسامع فى الجو الذى يريده ، ويجعله يشاركه فيما يسعى للتعبير عنه ، فإذا أخفق الشاعر فى تحقيق هذه المشاركة الوجدانية بينه وبين جمهوره ، ولم يستطع أن يقنعهم بتجربته وأن يجعل هذه التجربة تبدو معقولة أو كالمعقولة لديهم ، سقط شعره وأصبح مثيرا للضحك أو السخرية فيفقد بذلك الشاعر ما ينشده من ثقة جمهوره به وتصديقهم له واحترامهم لانفعاله .

و« حُسْنُ التعليل » أكثر من سائر أنواع الفنون البلاغية يضع الشاعر وجها لوجه أمام هذه الحقيقة سافرة واضحة ، لذلك كان نجاحه فى الإقناع بعيد الاحتمال ، إذ إنه بسط المسالة منذ البدء فى معرض منطقى جدلى ، أو أسلوب المغالطة والسفسطة حسبما يستخدمه المتفلسفون[1] .

وينكر الدكتور « حسن التعليل » أو ما سماه بالتعليل البلاغى ، ويعزوه إلى ما يعرف عند العلماء « بالإلغاز » وأن الشاعر ابن سناء الملك جعله فى مواضع كثيرة من شعره رياضة عقلية ومحاولة لإثارة ألغاز تحير عقول المستمعين ثم يفجؤهم بالحل ومثل لكلامه هذا بقول لابن سناء متحدثا عن الخمر والمتغزل فيه وهو الساقى :

أخذ الرّاح حراما وتحساها حلالا

فهذا لغز ينتظر المستمع له حلا من الشاعر ، ولا يطول الانتظار فالحل فى البيت الثانى :

طبختها نار خدّيه بنور يتلالا[2]

وأرجع الدكتور السبب فى اللجوء إلى ذلك إلى الحيل الفقهية التى كانت شائعة فى ذلك العصر ، وعكوف الفقهاء على إقامة الفروض المستحيلة الوقوع لمجرد الرياضة العقلية[3] ، ثم يقول : وليس من شك فى أن هذا النزوع كان له أثره فى شعر الشعراء[3] .

وهناك فرق كبير بين الإلغاز ، وحسن التعليل وذلك أن كلّ واحد منهما فن بلاغى مستقل يختلف عن الآخر ، وهذا خلط فى المسائل البلاغية .

---

(١) ينظر السابق : ٩٣ .

(٢) ينظر السابق ص ٩٦ .

(٣) السابق ص ٩٧ .

ويرى الدكتور أيضا : أن « حُسْنُ التعليل » إنما يستخدم فى بعض الأحيان لوظيفة نفعية أو عملية فى المجتمع سجلها له القدماء ، واعتبروه فيها منقذا من ورطة ومخلصا من كارثة .

فالناقد بدل أن يعتبر « حسن التعليل » دلالة قوية على سعة الخيال ، وشدة تمكن الشاعر أو الناثر فى اللغة ، ومقدرته على سرعة التصرف فى المواقف الحرجة ينعى عليه كل هذا وينكر ذلك اللون البلاغى ويعتبره نوعا من الإلغاز والحيل الفقهية والوظيفة النفعية .

ومعلوم أن هذا اللون من ألوان البلاغة إنما هو وسيلة من وسائل التصرف فى اللغة وقوة الخيال والقدرة العجيبة على الربط بين المتباينين وتقريب المتباعدين بوسيلة من وسائل الإقناع الذى يقرب الخيال من الحقيقة ، ويجعله كأنه حقيقة واقعة ماثلة أمام العين .

وفى نعيه على البلاغيين ودراستهم هذا اللون وخاصة الإمام عبد القاهر الجرجانى فى كتابه أسرار البلاغة ، نرى أن ذلك إنما كان منه لأنه لم يمعن النظر فى كلام الإمام ولم ير أنه قد اشترط لهذا اللون الطبع والبعد عن التعمق والملاءمة للمقام حتى لا يحدث هناك اختلال يخرج به إلى ما لا يرتضيه علماء البلاغة ، ولو رجع إلى كلام الإمام لوجده أوضح من الشمس فى رائعة النهار فى ذلك المجال .

* * *